المنفرجة

دراسة تحليلية

د.محمد زمري

جامعة تلمسان

يعدّ النص الأدبي حصيلة تفاعل الأنا والآخر والمحي ط، ذلك أنّ تمامه يحدث توازنا نفسيا ويؤدّي إلى ابتكار لغة إنسانية صورية تتجاوز الواقع إلى ما هو خياليّ، وهذا يعني أنّ النص ما هو إلاّ الاستجابة النفسية لمؤثر خارجي ذي أبعاد قيمية، لأنّ اللغة تظلّ مادة عفلة حتّى يتمّ التصرف الجمالي فيها ليتحقّق التجوّز وتتجلّى المشاكلة.

وإنّ البحث في التشكيل الفنّي للنص غاية في الأهمية، لأنّه يثير مسألة الأنساق والأجناس، ويظل يطرح التساؤل الذي شغل الأذهان منذ أمد بعيد؛ أيعتمد تصنيف الإبداع إلى شعر ونثر أم يعمد إلة مراعاة التشكيل السياقي لتمييز القصيدة من القطعة، والرسالة من القصة، والزجل من الموشّحة، والدوبيت من المواليا.

ويجدر التنبيه على أنّ بنية النص << المنفرجة >> تقوم على أسس عديدة، بعضها يتعلّق بالاستخدام اللغوي وبعضها الآخر يتعلّق بالإيقاع والمواءمة بين التصوّر والكناية، وهذا يؤدّي حتما إلى البحث في تلك العلاقات التي تعتمد نظام الثنائيات نواتها التوافق والتضاد؛ كثنائية الأنا والأنت، والأنا والهُوَ، والدّاخل والخارج، والحضور والغياب، والتكامل والتباين، وما اشبه ذلك. ولئن كان الأمر كذلك فإنّه يحسن بنا ذكر نص المنفرجة[1] موزَّعا إلة ستة مقاطع، وهي كما يلي:

المقطع الأول:

اشْتَدِّي أَزْمَةُ تَنْفَرِجِي ... قَدْ آذَنَ لَيْلُكِ بِالْبَلَجِ

وَظَلاَمُ اللّيْلِ لَهُ سُرُجٌ ... حَتَّى يَغْشاَهُ أَبُو السُّرُجِ

وَسَحَابُ الْخَيْرِ لَهَا مَطَرُ ... فَإِذَا جاَءَ الإِبّانُ تَجِ

وَفَوَائِدُ مَوْلاَنَا جُمَلٌ لِسُرُوحِ الأَنْفُسِ وَالْمُهَجِ
وَلَهَا أَرَجُ مُحْيٍ أَبَداً فَاقْصِدْ مَحْيَا ذَاكَ الأَرَجِ
فَلَرُبَّتَمَا فَاضَ الْمَحْيَا بِبُحُورِ المَوْجِ مِنَ اللَّجَجِ

المقطع الثاني:

وَالْخَلْقُ جَمِيعاً فِي يَدِهِ فَذُوُو سَعَةٍ وَذَوُو حَوَجِ
وَنُزُولُهُمْ وَطُلُوعُهُمْ فَـإِلَى دَرَكٍ وَإِلَى دَرَجِ
وَمَعَايِشُهُمْ وَعَوَاقِبُهُمْ لَيْسَتْ فِي الْمَشْيِ عَلَى عِوَجِ
حِكَمٌ نُسِجَتْ بِيَدٍ حَكَمَتْ ثُمَّ انْتَسَجَتْ بِالْمُنْتَسِجِ
فَإِذَا اقْتَصَدَتْ ثُمَّ انْعَرَجَتْ فَبِمُقْتَصِدٍ وَبِمُنْعَرِجِ
شَهِدَتْ لِعَجَائِبِهَا حُجَجٌ قَامَتْ بِالأَمْرِعَلَى الْحِجَجِ

المقطع الثالث:

وَرِضى بِقَضَاءِ اللَّهِ حِجاً فَعَلَى مَرْكُوزَتِهِ فَعُجِ
وَإِذَا انْفَتَحَتْ أَبْوَابُ هُدىً فَاعْجَلْ لِخَزَائِنِهَا وَلِجِ
وَإِذَا حَاوَلْتَ نِهَايَتَهَا فَاحْذَرْ إِذْ ذَاكَ مِنَ الْعَرَجِ
لِتَكُونَ مِنَ السُبَّاقِ إِذَا مَا جِئْتَ إِلَى تِلْكَ الْفُرَجِ
فَهُنَاكَ الْعَيْشُ وَبَهْجَتُهُ فَلِمُبْتَهِجٍ وَلِمُنْتَهِجِ

المقطع الرابع:

مُدِحَ الْعَقْلُ الآتِيهِ هُدىً وَهَوَى مُتَوَلٍّ عَنْهُ هُجِ
فَهِجِ الأَعْمَالَ إِذَا رَكَدَتْ فَإِذَا مَا هِجْتَ إِذَنْ تَهِجِ
وَمعَاصِي اللهِ سَمَاجَتُها تَزْدَانُ لِذي الْخَلْقِ الَّسَمِجِ

وَلِطَاعَتِهَا وَصَبَاحَتِهَا أَنْوَارُ صَبَاحٍ مُنْبَلِجِ
مَن يَخْطُبْ حُورَ الْخُلْدِ بِهَا يَظْفَرْ بِالْحُورِ وَبِالْغُنْجِ
فَكُنِ الْمَرْضِيَّ لَهَا بِتُقىً تَرْضَاهُ غَداً وَتَكُونَ نَجِ
وَاتْلُ الْقُرْآنَ بِقَلْبٍ ذِي حُرَقٍ وَبِصَـوْتٍ فِيهِ شَجِ
وَصَلاَةُ اللَّيْلِ مَسَافَتُهَا فَاذْهَبْ فِيهَا بِالفَهْمِ وَجِ
وَتَأَمَّلْهَا وَمَعَانِيَهَا تَأْتِ الْفِرْدَوْسَ تَنْفَرِجِ
وَاشْرَبْ تَنْسِيمَ مُفَجَّرِهَا لاَ مُمْتَزِجاً وَبِمُمْتَزِجِ
مُدِحَ الْعَقْلُ الآتِيهِ هُدىً وَهَوَى مُتَوَلٍّ عَنْهُ هُجِ

المقطع الخامس:

وَكِتَابُ اللَّهِ رِيَاضَتُهُ لِعُقُولِ الْخَلْقِ بِمُنْدَرِجِ
وَخِيَارُ الْخَلْقِ هُدَاتُهُمْ وَسِوَاهُمْ مِنْ هَمَجِ الهَمَجِ
وَإِذا مُنْتَ الْمِقْدامَ فَلاَ تَجْزَعْ فِي الْحَرْبِ مِنَ الرَّهَجِ
وَإِذَا أَبْصَرْتَ مَنَارَ هُدىً فَاظْهَرْ فَرْداً فَوْقَ الثَّبَجِ
وَإِذا اشْتَاقَتْ نَفْسٌ وَجَدَتْ أَلَماً بِالشَّوْقِ الْمُعْتَلِجِ
وَثَنَايَا الْحَسْنَا ضَاحِكَةٌ وَتَمَامُ الضَّحِكِ عَلَى الْفَلَجِ
وَغِيَابُ السِّرِّ قَدِ اجْتَمَعَتْ بِأَمَانَتِهَا تَحْتَ الشَّرَجِ
وَالرِّفْقُ يَدُومُ لِصَاحِبِهِ وَالْخَرْقُ يَصِيرُ إِلَى الْهَرَجِ

المقطع السادس:

صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَى الْمَهْدِي الْهَادِي النَّاسَ إِلَى النَّهَجِ
وَأَبِي بَكْرٍ فِي سِيرَتِهِ وَلِسَانِ مَقَالَتِهِ اللَّهِجِ
وَأَبِي حَفْصٍ وَكَرَامَتِهِ فِي قِصَّةِ سَارِيَةَ الْخَلَجِ

وَأَبِي عَمْرٍو ذِي النُّورَيْنِ الْمُسْتَحِي الْمُسْتَحَيَا الْبَهِجِ
وَأَبِي حَسَنٍ فِي الْعِلْمِ إِذَا وَافَى بِسَحَائِبِهِ الْخُلُجِ.

الشاعر أبو الفضل يوسف المعروف بابن النحوي أحد أعلام القرن الخامس الهجري، عاش في ما بين 433هـ و 513هـ ، نشأ في توزر ثم ساح في الأرض، فسافر إلى الحجاز ثم سجلماسة ثم فاس إلى أن استقرّ بقعلة بني حمّاد فطاب به المقام إلى أن وافته المنية بها.ولم يعرف عنه الشيء الكثير اللهمّ إلا شهرته بالورع والزهد والنّسك. وكذا معاناته ظلم الوالي له.

ولعلّ سبب نظم القصيدة يؤدي بنا إلى التفكير في البواعث الخارجية والداخلية التي تدفع المبدع إلى ابتكار نظمه وتحويل أحاسيسه إلى مدركات حسّية وذهنية باستعمال تعبيرات لغوية ذات بعدِ إنشائي وتصويري. ولكن التفكير قد يأخذ بعدا آخر إذا ما طرح السؤال الجوهريّ عن هذا النص؛ هل اشتهر بفضل أنساقه التعبيرية الكامنة في التركيب اللغوي بكلّ جوانبه الجمالية أو بسبب المرويات الخارجة عن النص والتي تتعلّق بنتيجة سلوك معيّن أدّى إلى حدوث شيء غير مألوف ؟ ويخال لي أن ما قيل عن المنفرجة ينطبق عليه هذا الطرح ولاسيما أنّ التسمية في حد ذاتها تؤكّد هذا الطرح لأنها تحمل دلالة الحكم؛ أهو نابع من إحساس جمالي وذوق نقدي أم أنه مرتبط بندم الوالي عن ظلمه للشاهر؟ ذلك أنّ الرواية تنص على أنّ أبا الفضل لمّا عاد من الحجاز إلى توزر وجد واليها قد اغتصب أملاكه فخرج مهموما فتوجّه >> إلى الجزائر وأقام بمسجد في قلعة بني حمّاد ونظم قصيدة يبتهل فيها على الله بعد أن دعاه متضرعا إليه في تهجده بقوله:

لبست ثوب الرّجا والنّاس قد رقدوا فقمت أشكوا إلى مولاي ما أجد
وقلت يا سيّدي يا منتهى أملي يا من عليه بكشف الضرّ أعتمد
أشكو إليك أمورا أنت تعلمها مالي على حملها صبر ولا جلد
وقد مددت يدي بالضرّ مشتكيا إليك يا خير من مدّت غليه يد

فرأى الوالي الباغي رؤيا أفزعته فاستقيظ مذعورا، وكفّ عن ظلمه معترفا بذنبه، وكتب له بإعادة أملاكه؛ لأنّه رأى في منامه النبيّ ρ وهو يقول له: ابعث لأبي الفضل بن النحوي في المسجد المعروف بكذا من بلد الجزائر من يأتيك به ويقضي مآربه، فوجّه الخليفة عنه، فلمّا حضر بين يديه قال له: ما حاجتك يا أبا الفضل؟ فأخبره بأمره، فكتب له بإعادة جميع ما أخبره به. ثمّ قال له: ما وسيلتك عند رسول الله؟ فأخبره بنظم هذه القصيدة[2] .

دلالية النص:

إنّ المستويات الدلالة مدعاة إلى النظر في ما تفرزه الاستعمالات اللغوية التي تنمّ على وجود انتظام في استخدام التجاوري والاستبدالي للألفاظ القائم على الجمل الفعلية والاسمية والشرطية، ذل ك أنّ التوافق يربط مجموعة من العلاقات التوافقية والمتضادّة المتمثّلة في الحقول الدلالية الآتية:

الشدّة والضيق: الأزمة/ ظلام الليل/ الحوج/ الدرك/

الصبر والتسامي: الطلوع/ الرضا/ الشوق/

التسليم للقدرة الإلهية: قضاء الله/ الطاعة/ الهدى/ التقوى/ منار الهدى.

العصيان: المعاصي/ السماجة/ الدرك/ العوج/ الظلام .

الانفراج والخير والفرح: آذن/ البلج/ يغشى/ الإبّان/الأرج/ سروج/ الجنة/ الحور/ الغنج/ الفردوس/ التسنيم/ الابتهاج/ السعة/ أبواب الهدى/خزائن الهدى.

العقل والشرع: التلاوة/ التأمّل/ الكتاب/ التدبّر/ العقل

السلوك الديني: الهداية/ الوصول إلى اليقين/ المقاصد/ طريق الوجد/ المقامات/ اللطف / الصلاة على النبي.

إن هذه الدلالات يحكمها مبدأ التوافق والتضاد، فدلالات الشدة والأزمة والهموم والحوج والنزول والدرك تتوافق لتجمع في معنى الضيق والشدّة، كما أن دلالات آذن والبلج ويغشى والإبّان والمحيا والأرج وسروج تتوافق لتشكل حقل الانفراج، وأما الصبر والتسامي فهما حصيلة توافق الطلوع والرضا والتقى والشوق والمهج، ويتجلّى توافق استعمالات القلق والعوج والظلام في تكوين العصيان، ويظهر

من التلاوة والتأمل والتدبّر انسجام العقل والشرع ، وأمّا تراكم الفيض والسعة وخزائن الهدى والجور والغنج والفردوس والتسميم فإنه يفضي إلى الجنّة والخير والفرح. وإنّ إنعام النظر في علاقات هذه الحقول يؤدّي إلى إدراك توافق الانفراج والصبر والجنة والخير والفرح وانسجام العقل والشرع، كما أن التوافق يتجلّى في ربط القلق والعصيان بالشدّة والضيق. وأمّا التضادّ فإنّه يطبع علاقة الانفراج والصبر والجنة بالعصيان والشدة والضيق. ويتجلّى هذا التضادّ في استعمالات عديدة مثل: الظلام والصبح، السواد والبياض، الظلام والشمس، السعة والضيق، النزول والطلوع، الحياة والموت، الإيمان والعقاب، التحرك والسكون، الهداية والضلال، المقدام والجزع، الشجاعة والجبن.

مضامين النص:

ينبني النص على جملة من المضامين ذات الأبعاد السلوكية والأخلاقية والعقدية والنفسية والاجتماعية، إذ تتشابك وتتداخل لتكوّن وحدة عضوية تجعل التعبير يتّسم بالتفرّد والتنوّع مما يجعل عملية التأثير ذات فاعلية كبيرة تصل إلى حدّ الإقناع، وذلك باستخدام أساليب بلاغية تمسّ تركيب الجمل وتلوين الصور.

والنصّ الذي نحن بصدد دراسته يقوم على مضامين نفسية ودينية، فتجلية القدرة الإلهية تضمنّت ربط مصير الإنسان بها، والتعبير عن الصبر المستمر حتى يفرّج الله الكرب.

وهذا ما جسّده في المقطع الأول إذ عبر عن إيمانه الراسخ بانبلاج كل الظلمات وانفراج كلّ الأزمنة؛ لأن حقيقة الكون قائمة على هذا المبدأ فالظلام يعقبه النور، والسحاب يعقبه المطر والغيث ، والنفس تبلغ سكينتها ومرتعها المليء بالهناء والسكينة. ثم يتبع هذا التجلي بتجليات أخريات تجسدت في مظاهر الانفراج، كذكر الخيرات والفوائد وتكرير الكلام على الخيرات التي لا تنقطع. يقول:

وَسَحَابُ الْخَيْرِ لَهَا مَطَرُ فَإِذَا جاءَ الإبّانُ تَجِ
وَفَوَائِدُ مَوْلاَنَا جُمَلٌ لِسُرُوحِ الأَنْفُسِ وَالْمُهَجِ

وَلَهَا أَرَجُ مُحْيٍ أَبَداً فَاقْصِدْ مَحْيَا ذَاكَ الأَرَجِ
وَإِذَا انْفَتَحَتْ أَبْوَابُ هُدىً فَاعْجَلْ لِخَزَائِنِهَا وَلِجِ
وَإِذَا حَاوَلْتَ نِهَايَتَهَا فَاحْذَرْ إِذْ ذَاكَ مِنَ الْعَرَجِ
لِتَكُونَ مِنَ السُبَّاقِ إِذَا مَا جِئْتَ إِلَى تِلْكَ الْفُرَجِ
فَهُنَاكَ الْعَيْشُ وَبَهْجَتُهُ فَلِمُبْتَهِجٍ وَلِمُنْتَهِجِ

ويجسّد هذا النص قضية تمسّ ما يشغل بال الإنسان ووجوده، إذ إن الشاعر أحسّ بمعاناة المفكّر في هذا الوجود فحاول إبراز تأمّلاته الوجود في ثنائية العقل والشرع؛ أهما متعارضان متضادّان أم متوافقان يكمّل أحداهما الآخر ؟

ويظهر أن الشاعر أكّد التوافق في تناغم العقل والإيمان، فالشرع خاء مخاطبا الحس والعقل لإدراك حقيقة الوجود الإنساني، وعليه فمآل العقل السليم تأكيد ما جاء به الشرع من دون مخالفة أو معارضة، ولن يتأكد ذلك التوافق إلاّ بعد بروز الاستقامة في السلوك الباطني والظاهري، يقول:

حِكَمٌ نُسِجَتْ بِيَدٍ حَكَمَتْ ثُمَّ انْتَسَجَتْ بِالْمُنْتَسِجِ
فَإِذَا اقْتَصَدَتْ ثُمَّ انْعَرَجَتْ فَبِمُقْتَصِدٍ وَبِمُنْعَرِجِ
شَهِدَتْ لِعَجَائِبِهَا حُجَجٌ قَامَتْ بِالأَمْرِعَلَى الْحِجَجِ
وَرِضى بِقَضَاءِ اللَّهِ حِجاً فَعَلَى مَرْكُوزَتِهِ فَعُجِ
مُدِحَ الْعَقْلُ الآتِيهِ هُدىً وَهَوَى مُتَوَلٍّ عَنْهُ هُجِ

وإن هذا التوافق يوصل المعتقد إلى الفوز بالجنة، ذلك أنها مبتغى كل مسلم منقاد إلى القدرة الإلهية التي لا محيد عنها، وهذا ما جعل الشاعر يحاول ما استطاع وصف مباهج الجنة مستلهما صورها البديعة من أي القرآن الكريم. ثم راح يرسم منهاج السلوك للوصول إليها حيث الحركة الدائمة، والطاعة، والتزا م الأخلاق الحسنة، وقراءة القرآن والصلاة والدعاء والتدبّر والاطمئنان النفسي. يقول:

فَهِجِ الأَعْمَالَ إِذَا رَكَدَتْ فَإِذَا ما هِجْتَ إِذَنْ تَهِجِ
وَاتْلُ الْقُرْآنَ بِقَلْبٍ ذِي حُرَقٍ وَبِصَـوْتٍ فِيهِ شَجِ

وَصَلاَةُ اللَّيْلِ مَسَافَتُهَا فَاذْهَبْ فِيهَا بِالفَهْمِ وَجِ
وَتَأَمَّلْهَا وَمَعَانِيَهَا تَأْتِ الْفِرْدَوْسَ تَنْفَرِجِ

وإن تسامي نفس الشاعر دفعه إلى إبداء التعلّق بالروحانيات، فعمل على تكثيف الصورة وتوزيعها توزيعا أفقيا وعموديا حتى يتمكّن من الترقّع إلى أعلى مقامات الزهاد والنساك والمتعبّدين والصوفية. فالمجاهدة أداة الهداية، والهداية توصل إلى اليقين، واليقين يبلغ بصاحبه الشوق والمجد والمحبّة الإلهية المنشودة من المقاصد، وما طريق الوجد إلا طريق واحد يرفد التديّن والعباد والمعرفة والمداومة. يقول:

وَكِتَابُ اللَّهِ رِيَاضَتُهُ لِعُقُولِ الْخَلْقِ بِمُنْدَرِجِ
وَخِيَارُ الْخَلْقِ هُدَاتُهُمْ وَسِوَاهُمْ مِنْ هَمَجِ الهَمَجِ
وَإِذا مُنْتَ الْمِقْدامَ فَلاَ تَجْزَعْ فِي الْحَرْبِ مِنَ الرَّهَجِ
وَإِذَا أَبْصَرْتَ مَنَارَ هُدىً فَاظْهَرْ فَرْداً فَوْقَ الثَّبَجِ
وَإِذا اشْتَاقَتْ نَفْسٌ وَجَدَتْ أَلَماً بِالشَّوْقِ الْمُعْتَلِجِ
وَثَنَايَا الْحَسْنَا ضَاحِكَةٌ وَتَمَامُ الضَّحِكِ عَلَى الْفَلَجِ
وَغِيَابُ السِّرِّ قَدِ اجْتَمَعَتْ بِأَمَانَتِهَا تَحْتَ الشَّرَجِ
وَالرِّفْقُ يَدُومُ لِصَاحِبِهِ وَالْخَرْقُ يَصِيرُ إِلَى الْهَرَجِ

وإن كلّ هذا التوظيف المضموني لبنية النص ليؤدّي إلى إنهاء القصيدة بالصلاة على النبي ρ وذكر الخلفاء الراشدين والدعاء لهم، ويدل هذا على وجود وحدة عضوية في تركيب النص حيث تفرغ كل وحدة تعبيرية إلى أخرى إلى أن ينهى النص بالصلاة والتسليم. فلم نجد في هذه القصيدة ما عهدناه في القصائد المعروفة المركّبة من المقدمة الطللية والرحلة والتخلص والموضوع، بل وجدنا الشاعر يراعي التسلسل المنطقي للأفكار التي كانت تحرك عبقريته الإبداعية وتسير بمخليته نحو تحقيق الفعل الأخلاقي الديني المتمثل في تجسيد القيم الأخلاقية القائمة على الإيمان وتوافق العقل والشرع والسير في منهاج المقامات الروحية المتسامية نحو المثل.

ويتبدّى من كل هذا أن الشاعر حرص على التسلسل الموضوعي القائم على توافق العناصر الفكرية وعلى تناسق المضامين قصد المحافظة وحدة النص، ففيه نجد ترابطا كبيرا بين أفكار تلك المضامين وهي:

. علاقة الشدة والانفراج والمصير الوجودي بالقدرة الإلهية

. علاقة الشرع بالعقل المتمثلة في الإيمان والعقل والسلوك، وتقييس الضلال في الحكم حيث الجاهل الضال يتساوى مع العالم الضال.

. علاقة توافق العقل والشرع بالجنة ومباهجها.

الخيال ومستويات الصورة:

إن نتاج التخيّل الصوري يقوم على ثلاثة مبادئ أساسية هي: الاستجابة النفسية ومحاكاة الفعل الإنساني وابتداع طريقة التعبير، ويختلج هذه المبادئ عاملي الخارج والداخل، وتحكمها رؤية الشاعر الفكرية التي تهيمن على مساره التعبيري، وتطبع صوره الشعرية المعبّر عنها بطوابع معينة.

فالشاعر أبو الفضل نهج في إيجاد صوره الشعرية خطا واحدا لم يحد فيه عن التقديم الحسّي معتمدا في ذلك على المدركات الحسية الظاهرة المتمثّلة في البصر بالدرجة الآولي ثم السمع ثم الشم، وينمّ هذا النهج على محاولة إيجاد رؤية توفيقية في رصد الظاهرة الكونية لتجسيم المجرد والمعنوي، ولنذكر علة سبيل المثال بعضا من تلك الصور، يقول الشاعر:

وَظَلَامُ اللّيْلِ لَهُ سُرُجٌ   حَتَّى يَغْشَاَهُ أَبُو السُّرُجِ

فالصورة الجزئية تتكوّن من متضادين متمثّلين في لون السواد « الظلمة » ولون البياض«ضوء النجوم » لكنّ توافقهما يخلق صورة أخرى تتمثّل في انسجام الظلام مع نور النجوم، وكانّ هذا النور الخافت يبرز الظلام، فهذه الصورة الجزئية على ضد أوصاف الشمس حيث لا ظلمة ولا خفوت مما يكسب الصورة بعدا تعبيريا مفاده أنّه على الرغم من اشتداد الهموم فإن الحال لا تخلو من لطف الله ورحمته

الواسعة، ومهما طال أمدها فإنّ مآلها التلاشي والاضمحلال فيذهب الكرب ويحل الفرح.

ويتجلّى التصوير الحسّي في تقرير الحقيقة الكونية المجسدة للقدرة الإلهية والقائمة على الترابط السببي، حيث السحاب ونزول المطر والإخصاب وظهور الخيرات على الأرض، يقول:

وَسَحَابُ الْخَيْرِ لَهَا مَطَرُ   فَإِذَا جَاءَ الإِبّانُ تَجِ

ما أنّ المزج بين المعنوي والمادّي يجعل الصورة حسنة موشحة بأبهي التفاصيل التصويرية ولاسيما إذا كان هذا المعنوي روحيا نسكيا وذا مسحة تأملية، كأن يعدّ نعم الله غير المحدّدة مراعي ترعى فيها الأنفس الطاهرة والمهج الصافية طلبا للراحة وهدوء النفس، وبعدئذ يجعل تلك المراعي روضة تفوح أزهارها عطرا فتدخ السكينة في النفوس التوّاقة إلى لقاء ربّها، ثم بعد ذلك يتسامي بالصورة فيلجأ على المظاهر الكونية الأخري والمتمثّلة في تعظيم تلك الخيرات وربطها بعظمة البحور والأمواج للدلالة التي الكثرة العارمة لتلك الخيرات، يقول:

وَفَوَائِدُ مَوْلاَنَا جُمَلٌ   لِسُرُوحِ الأَنْفُسِ وَالْمُهَجِ
وَلَهَا أَرَجُ مُحْيٍ أَبَداً   فَاقْصِدْ مَحْيَا ذَاكَ الأَرَجِ
فَلَرُبَّتَمَا فَاضَ الْمَحْيَا   بِبُحُورِ المَوْجِ مِنَ اللَّجَجِ

إن ما يمكن التوصّل إليه هو أن الشاعر كان يعمد في رسم صوره إلى المظاهر الكونية العلوية والسفلية لتجميل صوره الشعرية لإبراز فلسفته القائمة على التسليم للقدرة الإلهية، وهو في ذلك يلجأ إلى مبدإ التوافـق والتضاد فكان أحيانا يبني صوره على التوافق مثل توافق العقل والشرع والتسليم وعدم العصيان، وكان في أحيايين أخريات يوفّق بين المتضادي ن لتعميق صورة الوجود الإنساني وربطه بالمشيئة الإلهية، مثل قوله:

وَظَلاَمُ اللّيْلِ لَهُ سُرُجٌ   حَتَّى يَغْشَاهُ أَبُو السُّرُجِ

فهنا الشاعر يمزج بين الظلمة الحالكة وأنوار الكواكب لتأكيد فكرته الدالة على أن الظلام يصاحبه دوما نور، فالنور يظهر الظلمة والظلمة تظهر النور،وهذا الامتزاج نابع من فلسفة الشاعر الوجودية وهي أن الأمل قائم لا محالة في كل الأوقات، لأنّ اليسر يتبع دوما العسر، وإن هذا التجاذب يظل إلى أن يبزغ الفرج.

ويمكن ألقول إن الشاعر بنى صوره الشعرية على قناعته العقدية الدينية، وذلك بتوظيفه للتعبير القرآني الوارد في الآيات التي تحدّد مصير الإنسان وتدعوه إلى الاتزان النفسي وترسم له الطريق المستقيم، كما أن الصور التي كان الشاعر يحيكها تميزت بعدم التراكم العمودي، إذ إنّ النهج الأفقي في الوصف كان ملاذه وكان مسوغه إلى عدم الإكثار من التصوير الخيالي لأن مبتغى الشاعر انصبّ على التبليغ والإقناع والدعوة إلى سلوك منهاج أخلاقي تمثل في الصبر والإيمان بالقضاء والقضاء وتلاوة القرآن، وتأكد ذلك في إنهاء قصيدته بالصلاة على النبي ρ والسلام عليه وذكر الخلفاء الراشدين والدعوة لهم بالرحمة.

ويجب التنبيه على أن الشاعر أبا الفضل التوزري اعتمد آيات القرآن الكريم في استخراج المعاني الأخلاقية والدينية، حتّى إنّنا نخاله قابل كل بيت بآية قرآنية، أو كلّ مقطع بمجوعة من الآيات الداخلة في معنى من المعاني التي كان يودّ أداءها، ويحسن ها هنا أن نسرد بعضا منها متتابعة ومتتالية، ففي التعبير عن الصبر فقد ضمّن معاني الآيات القرآنية التي تحثّ على الصبر وتبشّر الصابر، مثل قوله تعالى:

[جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمْ الْأَبْوَابُ][3]

[وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ] [4]

[وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ] [5]

[وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ] [6]

[وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا] [7]

وأما الصلاة فقد وظّف تعبيرات قرآنية عديدة، نذكر منها ما يلي:

[وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ] [8]

[وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ] [9]

[وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ] [10]

وأمّا دخول الجنة فقد كان يبشّر بها كما بشر بها القرآن الكريم مثل قوله تعالى:

[وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا] [11]

[جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ] [12]

[سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ] [13]

وإن الحث على قراءة القرآن والحديث عن الجنة كانا ياخذان اهتمامه، وهنا أيضا كان يستند على آيات القرآن الكريم التي رغبت المؤمنين في منافع قراءة القرآن،وصوّرت لهم الجنة بأبهى الصور، نحو قوله تعالى:

[وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا] [14]

[جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمْ الْأَبْوَابُ] [15]

[وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ] [16]

[وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ] [17]

[الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِ الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ] [18]

[وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ] [19]

[الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ] [20]

[وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ] [21]

[هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ] [22]

ويمكن القول إن المنفرجة قصيدة في المناجاة والزهد والنسك ، أخذت شهرتها من إيقاعها ومن معانيها ومن البواعث التي أدّت بالشاعر إلى قرضها ورصف كلماتها ، وإخراج مكنون الصدر ونشره على صدرها وعجزها وحشوها وقافيتها .

الإحالات

[1] تحقيق أحمد أبو رزاق. المؤسسة الوطنية للكتاب. 1984. ص 8.

[2]– المصدر نفسه والصفحة نفسها

[3] سورة ص الآية 50

[4] سورة البقرة الآية 155

[5] سورة هود الآية 115

[6] سورة الشورى الآية 143

[7] سورة الإنسان الآية 12

[8] سورة الرعد الآية 12

[9] سورة النور الآية 56

[10] سورة فاطر الآية 34

[11] سورة النساء الآية 124

[12] سورة النحل الآية 31

[13] سورة الحديد الآية 21

[14] سورة الأحزاب الآية 34

[15] سورة ص الآية 50

[16] سورة الزمر الآية 73

[17] سورة البقرة الآية 155

[18] سورة الحج الآية 35

[19] سورة الرعد الآية 22

[20] سورة الأنفال الآية 2

[21] سورة الزمر الآية 73

[22] سورة غافر الآية 65.